مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

الإصلاح الديني والثقافي في الجزائر بين 1900–1953 –منطقة القبائل نموذجا–

Religious and cultural reform in Algeria 1900-1953 - Kabylie area Model-

ط. إقنان عبد الحفيظ
iguenane.abdelhafid@yahoo.com
د. لوصيف سفيان
جامعة محمد الأمين دباغين –سطيف 2

تاريخ الإرسال: 22–01–2019 تاريخ القبول: 25–04–2019

الملخص:

سعى الاستعمار الفرنسي إلى تفكيك المجتمع الجزائري وتدميره بكل الطرق والوسائل عبر سياسة "فرق تسد" التي قسمت المجتمع الجزائري وفق أسس وهمية وعرقية لا تبت بصلة إلى كينونة هذا المجتمع الذي توحد تحت راية الإسلام، فحاول المستعمر خلق إثنيات وأقليات تفصلها عن هويتها المشتركة في العادات والتقاليد والدين، فركز الاستعمار الفرنسي على منطقة القبائل وحاول فصلها عن سائر القطر الجزائري، لكن جهود سكان المنطقة الإصلاحية وتوجيهات جمعية العلماء المسلمين أنقذت المنطقة من المشروع الثقافي والديني الفرنسي في منطقة القبائل.

الكلمات المفتاحية: الاصلاح؛ الاستعمار؛ الدين؛ القبائل؛ الثقافة؛

ABSTRACT:

French colonialism sought to dismantle and destroy Algerian society in all ways and to divide it into opposing elements, including Kabylia for colonial reasons, but the efforts of the

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

reformist population and the directives of the Association of Algerian Muslim ulema swept the region of the French cultural and religious project in the region

Keywords: Reform; colonization; religion; Kabylia; culture

المقدمة:

بعد فترة من الركود والانغلاق التي عاشتها الجزائر المستعمرة في جميع المجالات وخاصة الثقافية منها–استمرت من بداية الاستعمار الفرنسي إلى غاية مطلع القرن 20– سميت لدى المؤرخين مرحلة الانكماش، ظهرت في الجزائر حركة إصلاحية قادها ثلة من العلماء آلمهم الوضع السيء الذي وصلت اليه، فحملوا على عاتقهم مهمة إعادة احياءها وبعثها من سباتها العميق الذي غطت فيه.

وعلى غرار باقي مناطق الجزائر، شهدت منطقة القبائل هي الأخرى ركودا ثقافيا كبيرا، رغم أنّها كانت منارة للعلم والمعرفة تنير على كامل ربوع القطر الجزائري بما تحويه من زوايا ومراكز علمية يفوق عددها 500 زاوية.

قصد اصلاح الأوضاع فيها تبنى أبناؤها حركة إصلاحية مست مختلف الجوانب الثقافية، همهم ارجاع الإسلام الى مكانته الحقيقية متحدِّين مطرقة السياسة الاستعمارية البغيضة وسندان الطرقية التي سيطرت على المنطقة، من خلال هذا المقال أردت اماطة اللثام عن الوضع الذي عاشته منطقة القبائل بما لديها من خصوصيات، وبدافع ليس له مجال للشك عن أصالة المنطقة وجهود أبنائها في ابقائها إسلامية، منتقدين كل من يتقول غير هذا.

فمست الحركة الإصلاحية منطقة القبائل كغيرها من مناطق الجزائر، كما ساهمت هي الأخرى في حركة الإصلاح خاصة بعد ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتبنيها للحركة الإصلاحية، فمن خلال هذا المقال نحاول فك الغموض عن جوانب

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

الحركة الإصلاحية التي شهدتها القبائل، ومدى نجاحها في ظل تكالب قوتين عليها الاستعمار الفرنسي من جهة والطرقية الرجعية المنحرفة من جهة أخرى؟

أولا: الموقع الجغرافي وطبيعة السكان:

تقع منطقة القبائل شرق الجزائر العاصمة، تتألف من جبال جرجرة وحوض الصومام وجبال البيبان والجزء الغربي من جبال بابور وقسم من الهضاب العليا الشرقية بين سطيف وسور الغزلان[1]، يحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط، من سوق الإثنين إلى شرق أوقاس وبجاية إلى دلس، ومن الشرق "واد أقريون" من الغرب واد يسر ومن الجنوب برج بوعريريج والحضنة وسهل غريب "منطقة عين بسام"، [2] ويمكن القول عن جغرافية بلاد القبائل أنّها محصنة طبيعيا من جبال جرجرة وجبال بابور وأكفادو حيث لم يتمكن الاستعمار الفرنسي من الاستيلاء عليها إلا بعد نحو ربع قرن من استلائه على الجزائر، وكانت منطقة القبائل عبر التاريخ ملجأ للكثير من الأولياء والمصلحين أمثال سيدي علي بوناب في تيزي وزوو سيدي عبد الله بحيزر وسيدي عبد الرحمن بنوح وغيرهم.

أما عن أصل السكان فاختلف النسابة والمؤرخون في تحديد أصل الأمازيغ فمنهم من قال أنّهم ساميون وزعم آخرون أنّهم آريون، وعلى الرغم مما تم اعداده والبحث فيه فإنّ الدراسات التاريخية لم تفصل في الموضوع بل هي متباينة عن حقيقة الأصول الأولى للمجتمعات المغاربية، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الجزائري محمد مبارك الميلي "الحديث

[1]– يحيى بوعزيز : أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ص 19.

[2]– عبد القادر مولاي : أقطاب الإصلاح في منطقة القبائل 1912–1956، أطروحة دكتوراه، اشراف عمار بن خروف، جامعة الجزائر، 2007، ص ص 6–8.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

عن أصل البربر من أكثر الأحاديث اضطرابا وأوسعها خلافا، بحث فيه المؤرخون قديما وحديثا وأطالوا البحث ولكن لم يحصلوا إلا على روايات متضاربة وآراء متناقضة ولهم في البحث طريقتين، طرقية المتقدمين من مؤرخي اليونان والرومان والعرب تعتمد على الرواية والنقل وطريقة المتأخرين من مؤرخي الإفرنج تعتمد على الدراسة والنظر الى اللغة والخلقة والصناعة"[1]، ومن خلال قول مبارك الميلي نستخلص أنّ هناك جانبين من الدراسة حول أصل سكان شمال إفريقيا، فالدراسة الأولى دراسة تاريخية ذات أبعاد علمية وإبستيمولوجية في تحديد أصل السكان فمثلا أفلاطون يقول أنّ البربر نشأوا بالمغرب وليس منقولين من وطن آخر، ويرى كذلك المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون أنهم حاميون من مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح حيث يقول: "والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في نشأتهم أنّهم من ولد كنعان بن حام بن نوح وأنّ اسم أبيهم مازيغ"[2].

أما المدرسة الكولونيالية التي اعتمدت على معيار الخلقة من حيث شكل الجسم ولون البشرة والعينين فادعى بعضهم أنَّ أصولهم من بقايا الرومان والوندال وهذا ما أقره بعض الباحثين الفرنسيين على غرار "ستيفان قزال" و"مارسي" وهذه الأخيرة –المدرسة الفرنسية–ليست بريئة بل يكمن هدفها في خلق فئة اجتماعية معينة لتكون وسيلة لتسهيل مهمة الاستعمار من خلال مبدأ "فرق تسد".

وعرف تاريخيا سكان هذه المنطقة باسم زواوة فذكرهم ابن خلدون "ومواطن زواوة بنواحي بجاية ما بين كتامة وصنهاجة أوطنوا منها جبالا شاهقة متوعرة تتذعر منها

[1]– مبارك بن محمد الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص ص 81–84.

[2]– عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، دار الكتاب العلمية، بيروت، 2001، ص 113

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

الأبصار..."[1]، إضافة إلى ابن خلدون فاعتبر "الغبريني" أنّ هذا المصطلح متداول خلال القرن الثالث عشر من الميلاد حيث ذكر بعض أعلامهم بنسبها الزواوي مثل أبو زكريا يحيى بن أبي علي الزواوي وأبو محمد عطية الله بن منصور الزواوي،[2] وما يزال سكان الغرب الجزائري يستعملون مصطلح زواوة إلى اليوم، لكن زواوة ليس هي التسمية الوحيدة التي تطلق المنطقة، فذكرها القنصل الأمريكي بالجزائر وليام شالر ببلاد القبائل عند الحديث عن المنطقة في مذكراته سنة 1826[3]، وكذلك المؤرخ الجزائري حمدان بن عثمان خوجة في كتابه المرآة[4].

أما عن المعنى الاشتقاقي لمصطلح القبائل فانّه لا يخرج عن ثلاثة معاني وهي القبيلة Kabyla وقبِلَ Kabel بكسر الباء قبْل Kobel بتسكين الباء، فالمعنى الأول "القبيلة" تدل على مجموعة من العشائر التي تسكن المنطقة، أما المعنى الثاني "قبل" يشير إلى قبول سكان المنطقة بالإسلام بينما يدل المعنى الأخير "قبْل" على تواجد السكان في المنطقة قبل توافد المسلمين عليها.

واستغل الاستعمار الفرنسي مصطلح "القبائل" لأغراض سياسية حيث أضفى عليها لمسة عرقية وركز على استعمال مصطلح "الشعب القبائلي" واللغة القبائلية، أما من

[1]– عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 104.

[2]– أبو العباس أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق وتعليق عادل نويهض، ط2، دار الأفق الجديد، بيروت، لبنان، 1979، ص 135.

[3]– وليام شالر: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر (1816–1824)، تعريب وتقديم إسماعيل العربي، الجزائر، 1982، ص 113.

[4]– حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1982، ص 60.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

الناحية الجغرافية فعمل الاستعمار على محاصرة بلاد القبائل وتقسيمها من خلال تقسيم المنطقة إلى القبائل الكبرى وهي غرب جرجرة والقبائل الصغرى شرق جرجة و لم يكتف الفرنسيون بذلك بل قسموا القبائل الصغرى إلى أربعة أقسام أيضا: قبائل الصومام– البابور–البيبان–قرقور–وهكذا من أجل خدمة الأغراض الاستعمارية.[1]

ثانيا: سوسيولوجيا المجتمع القبائلي:

إنّ النظام السياسي والإداري لسكان منطقة القبائل من أكثر الأنظمة ديموقراطية وفي آن واحد من أكثرها بساطة، وربما لم يسبق لنظام قائم على الحكم الذاتي أن طبق بصورة أكثر جمالا وشمولية، إذ لم يسبق لإدارة أن نظمت ذلك العدد القليل من المواطنين الذين لا يكلفون الرعية أية نفقة أو ضرائب، فالحكومة والقضاء والإدارة لا تكلف المواطن أي أعباء وهذا نتاج للتعاون والتضامن. فسكان الأمازيغ لديهم نزعة التنظيم المحلي البارزة كخاصية مشتركة، وهذا ما ساعدهم على الإفلات من السيطرة الأجنبية فهم دائما يشكلون جمهوريات صغيرة مجتمعة محدودة الامتداد[2]، والنظام الاجتماع والعشائري القبائلي هو نظام تراتبي متسلسل على شكل هرم فهو يكون كالتالي:

– **ثخروبث:**[3] ثم تعريفث[1] ثم أذروم[2]وتخروبث هي القطاع الأكبر تخضع لسلطة كبير العائلة وتتخذ عدة "خروبات" مشكلة القرية "ثادرث" وهي الوحدة السياسية

[1]– سعيدي مزيان : السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل ومواقف السكان منها (1871–1914)، أطروحة دكتوراه، إشراف حباسي شاوش، جامعة الجزائر، 2009، ص 29.

[2]– هانوتو ولتورنو: منطقة القبائل والأعراف القبائلية، ج2، تر مخلوف عبد الحميد، دار الأمل، الجزائر، 2013، ص ص 3–4.

[3]– ثخروبث مأخوذة من الكلمة العربية خروبة وهي شجرة الخروب تطلق كذلك على الشعب لتشعب أعضائه.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

والإدارية لبلاد القبائل، تعين قادتها وتسن القوانين وفق حاجتها ويمكنها إن كانت قوية الاستغناء عن جيرانها بمعنى أنَّها كيان يتمتع بالاستقلالية.[3]

وقد يحدث وأنْ تتحد عدة قرى لغرض دفاعي أو صد عدوان مشترك لكنه سرعان ما يزول ويسمى هذا الاتحاد "توفيق" فمثلا عند سكان آيت يحي نجد قبائل "آقوني"، أيصنديلن، لمخرطة، آيت سيدي أحمر تتحد مشكلة توفيق المشتقة من "ثافة" والتي تعني التجمع الكبير.[4]

إنَّ العائلة عند القبائلي يمكن اعتبارها وحدة اجتماعية حقيقية ليس لأنَّ الفرد الذي يعيش وحده في حالة استثنائية فقط، بل لأنّ الفرد يبقى متحدا بأقاربه من خلال روابط أسرية واجتماعية، حيث التضامن بين أفراد القرية أو الأسرة يصل إلى درجة أنّه يشكل جسما واحدا معه، إنّ النظام في منطقة القبائل نجد على رأسه مسيرا لحاجياته من:

الأمين: ويسمى أيضا الراعي "أمكسا" هو الأمين على القرية يحرص على مصالحها، ويحدد حاجياتها ويحافظ على الأمن، وهناك مجموعة من الشروط ملزمة في أمين القرية أبرزها أن يكون من أهل القرية وأن يكون من الأسر المؤثرة والفعالة داخل القرية ويكون ثرياً حتى يكون في غنى عن أحد وعن الإغراءات، وهذه الوظيفة يتجنبها الأشخاص كي يكونوا في منأى عن المشاكل والضغائن والأحقاد، وهذا المنصب غير

[1]– مأخوذة من الكلمة العربية التعرف أي تكون على بينة من أمر معين، وقد تعني تجمع أشخاص يعرفون بعضهم بعضا.

[2]– كلمة أمازيغية تعني نسل شخص ونسبه.

[3]– سعيدي مزيان: المرجع السابق، ص 18.

[4]– ثافة، كلمة أمازيغية تعني الشيء الكثير أو الكثرة في نوع أو صنف معين.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

محدد بمدة معينة فقد يستمر لعشر سنوات، وإذا فقدت الثقة في الأمين فانَّه يعزل دون المساس بمشاعره إلاّ إذا رفض التنحي حيث ستتخذ ضده إجراءات أكثر قسوة ولكن هذا نادر الحدوث.

إنّ تعيين الأمين حدث مهم ويوم فرح، تقرأ الفاتحة ويقسم على المصحف من مهام الأمين:

– تطبيق قرارات مجلس الجماعة، تلقي الشكاوى، وتلقي تقارير الطمان، المحافظة على الأملاك العامة، يحضر عقود البيع والشراء، يدرس مشاريع كإصلاح المسجد أو العين، ويقوم بجمع الرجال الأصحاء، إذا كان هناك عمل جماعي للصالح العام وفي يديه التسيير المالي ما عدا موارد المسجد، ويعتبر واجب الضيافة من أقدس مهامه، ويحقق في الجرائم.[1] يساعده في مهامه الطمّان "الضامن"، وهو مسؤول عن "خروبة" معينة إضافة إلى البراح المنادي في الأسواق والامام.

الجماعة:

تمثل "ثاجماعث" السلطة الحاكمة في القرية وهي السلطة الوحيدة في الواقع يقول عنها إميل كاري: "الجماعة أو البلدية هي غرفة التمثيل النيابي، حجرة الاجتماعات وأخيرا نزل القرية ...يحضر إليها القبائليون يتكلمون ويتشاورون، حول جميع القضايا التي تهم جنسهم، قبيلتهم (عرشهم) وغالبا قريتهم، ينتخبون رؤوسهم أو أمناءهم كي يدافع عن قضاياهم"[2]، وهي تجمع في نفس الوقت السلطتين السياسية والإدارية ونسبيا السلطة القضائية، تتميز قراراتها بطابع السيادة ووحدها لها الصلاحية في اتخاذ المبادرة

[1]– هانوتو ولوتورنو: المصدر السابق، ص 29.

[2]–Emile Carry : Récits de Kabylie campagne de Liminaire de Abderrahmane Rabahi, édition Alger, 2007, pp147-184.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

فيما يتعلق بالمصالح العامة، يمكن لكل شخص مسموح له بصيام رمضان أن يكون عضوا في الجماعة أو "ثاجماعث" ويتمتع على هذا الأساس بحق المواطنة ويتحمل ما تمليه عليه من أعباء ويمكن له أن يشارك في جلساتها ويبدي رأيه في القضايا المطروحة[1].

تجتمع مرة في الأسبوع في الغالب إلا في الحالات الاستثنائية يبدأ الاجتماع بالفاتحة وينتهي بها ولا يمكن تناول الكلمة إلا بإذن الأمين ما عدا الرجال المؤثرين والمسنين والطمان، ومن تخلى عن هذا النظام يتعرض لنقد شديد، ورغم أنّه "الاجتماع" يشارك فيه الكثير إلاّ أنّه من النادر أن تحدث فوضى وشغب وهذا راجع الى الأمين والطمان يمارسان تسيرا صارما في حالة وجود قضية طارئة، يتشكل مجلس مصغر يضم الأمين الأعيان الإمام والطمان ويصدرون قرارا غير قابل للطعن، ورغم أنّ الحقوق متساوية في المجلس إلاّ أنّ السن يلعب دورا مهما.

إنّ العقلاء رجال مشهود لهم بالحكمة والموعظة، عددهم غير محدود وعضويتهم غير مقيدة بشرط والرأي العام وحده من يمنح صفة "العقال"، من صلاحيات "ثاجمعث"سن القوانين، تغيير القوانين أو تعديلها، إعلان الحرب، الضرائب، وتصدر العقوبات حتى عقوبة القتل والغرامات على أقل المخالفات للقوانين داخل القرية وباختصار لا يوجد شيء خارج رقابتها.

التضامن القبلي: إنّ ما يميز قرى بلاد القبائل التضامن الكبير بين أفرادها فالكثير من الأعمال ذات الصالح العام يشترك جميع أهل القرية في إتمامها، كما أنّ أي شخص يتعرض لمصيبة أو جائحة مثلا فانّ على أفراد القرية مساعدته لتجاوز محنته ولعل أبلغ مظاهر نجدها في "التويزة" أو "ثيمشرط" أو "لوزيعة".

[1]– هانوتو ولوتورنو: المصدر السابق، ص ص 09–11.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

فالتويزة هي تطوع أهل القرية لمساعدة أحد أفرادها مثل مساعدته في حصاد قمحه أو جني زيتونه و"ثيمشرط" يتفق أهل القرية على شراء عجل أو أكثر، يذبحونه ويوزعون لحمه بينهم، بالعدل ويستثنى الفقراء والأرامل واليتامى من دفع المال فهم يحصلون على نصيبهم مجانا.

ثالثا: السياسة الدينية والثقافية الفرنسية في منطقة القبائل:

في عام 1857 وبعد عدة محاولات تمكنت القوات الفرنسية بقيادة "المارشال راندون" من احتلال منطقة القبائل وبنى هناك حصنا كبيرا سماه حصن نابليون معلنا بذلك بداية محاولة فرنسة القبائل، وحضر حفل وضع حجر الأساس الأب "سوشي" ممثلا للكنيسة وبارك الأرض وسط دقات طبول الجيش ودمدمات المدافع فحضور الأب كان له دلالة رمزية واسعة.[1] لقد اهتمت فرنسا بهذه المنطقة أكثر من اهتمامها بأي منطقة أخرى في الجزائر، حيث ألف الأنثروبولوجيون الفرنسيون والمؤرخون والقادة العسكريون الكثير من الدراسات حولها أين تطرقت إلى أدق التفاصيل، ومارس الاستعمار سياسة هدفها تحطيم المنطقة وسلخها عن هويتها الأمازيغية الإسلامية العريقة.

فقام المستعمر بتفكيك النظام الإداري (الجماعة) أين أصدر المريشال راندون قرارا في 11 جانفي 1858 فحواه أنَّه يتوجب على الضباط العاملين في منطقة القبائل التعامل مع السكان معاملة خاصة مستهدفا استقلالية الجماعة وعمل على تحطيمها بتأسيس نظام إداري وقضائي أطلق عليه مصطلح التنظيم القبلي.[2]

---

[1]– أبو القاسم سعد الله: تاريخ الحركة الوطنية، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص 1992، ص 353.

[2]– شارل روبير آجيرون: المسلمون الجزائريون وفرنسا (1871–1919)، تعريب م. حاج مسعود و أ. آكلي، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007، ص 27.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

وعمد الاستعمار إلى طريقة جديدة في استخدام هيئة الجماعة وتعيين الأمناء عن طريق الاقتراع ومضاعفة عددهم وعدد الجماعات، وبالتالي سرعان ما فقدت الجماعة استقلالها و لم يعد وكيلها يسير سوى الموارد المالية للقرية وتحول الأمين إلى عون للإدارة الاستعمارية التي عينت له مساعدا يسمى "الخوجة" مهمته تحصيل ضريبة الرؤوس.

أصبح الأمين يعين سنويا بالانتخاب لكن من أقوى الصفوف ولتحقيق التوازن وعدم ترك الأمين يتصرف بحرية فقد كان الوكيل يعين من الصف المنافس[1]، وأصبح الأمناء عددهم كبيرا جدا (541 أمين) هم بدورهم تحت سلطة أمين الأمناء وبالتالي فقدت منطقة القبائل استقلالها.

أ–محاربة القضاء الإسلامي: انتزعت السلطات الفرنسية السلطة القضائية من يد الجماعة وجعلتها بيد قضاة الصلح يساعده قاض مسلم يسمى القاضي الموثق، لا يحكم إنّما يسجل الوثائق فقط، إلى جانب شهود المعاملات الفرنسيين، وفي 29 أوت 1874 ألغت فرنسا سائر القضاة المسلمين الذين كانت قد نصبتهم من قبل في منطقة القبائل، إذ بموجبه تم اخضاع منطقة القبائل إلى القضاء الفرنسي المتمثل في محاكم الصلح والمحكمة الابتدائية الكبرى في كل من بجاية وتيزي وزو ومحكمة الاستئناف في الجزائر.[2]

وفي 18 أفريل 1882 صدر قانون نزع السلطة من أيدي الجماعة وجعلها بين يدي قضاة الموثقين خاصة،[3] اعتبر قاضي الصلح في محكمة الصلح قاضي القانون العام في منطقة القبائل وذلك بموجب مرسوم 12 ديسمبر 1908، يفصل في كل الدعاوي

[1]– سعيدي مزيان: المرجع السابق، ص 172.

[2] –Bulletin judiciare de l'Algérie, Doctrine jurisprudence législation 4e année 16 Février 1880, N°76, p52.

[3]– أحمد توفيق المدني: هذه الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر، الجزائر، 1984، ص ص 343–344.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

المدنية والتجارية والمنقولات والعقارات التي لا تتجاوز قيمتها 500 فرنك فرنسي قديم، كذلك يفصل في كل المنازعات المتعلقة بالأحوال الشخصية والمواريث.[1]

عندما رفض أهل زواوة التوجه إلى القضاء الفرنسي صدرت تعليمات توجب محاربة المرابطين المعادين للسياسة الفرنسية فأصدرت الإدارة قوانين مستمدة من التقاليد القبائلية أو مكملة لها دون الرجوع إلى تعاليم الدين الإسلامي في هذا المجال، هذه القوانين التي تشمل مسائل الزواج كانت تحت اشراف "إميل صباتي" الذي كان يشجع التجنس والزواج المختلط.

وفي إطار المبادرة الساعية إلى فرنسة القضاء القبائلي حاولت الإدارة الاستعمارية سنة 1906 إلزام القضاة الموثقين كي يتولوا إبرام العقود باللغة الفرنسية لكن التجربة منية بالفشل، فلم يتم تحرير سوى 50 عقد باللغة الفرنسية من جملة 2114 عقد مبرم، حيث فضل القبائليون تحرير عقودهم باللغة العربية، غير أنّ ذلك لم يمنع مدير الشؤون الأهلية من تبرير مبادرته متحدثا عن التقدم الذي تحققه اللغة الفرنسية في القبائل، ومصرحا للنواب العرب الذين طالبوا منه تدريس اللغة العربية في بلاد القبائل : "لقد أخذت اللغة الفرنسية في الانتشار ببلاد القبائل أكثر من اللغة العربية".[2]

تمسك أهل المنطقة بالقضاء الإسلامي واعتزلوا القضاء الفرنسي فكانوا يتوجهون إلى المرابطين والفقهاء، وقضاة الأسواق في المنطقة، وقاطعوا القضاة الذين فرضتهم الإدارة كما طالب أعيان المنطقة أمام لجنة الشيوخ سنة 1882 بالعودة إلى الشريعة الإسلامية وتطبيقها على كل المسلمين في منطقة القبائل، كما أكد آخرون على ضرورة

[1]– سعيدي مزيان: المرجع السابق، ص 245.

[2]– شارل روبير آجرون: المرجع السابق، ص ص 444–445.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

عودة القضاة المسلمين بكل صلاحياتهم ونددوا بمساوئ قضاة الصلح وطالبوا بإلغاء هيئة المحلفين.

كما عملت فرنسا على إبراز العرف وتغييب الشريعة الإسلامية وإثبات أنّ الأول هو مصدر القانون وليست الشريعة الإسلامية ووضع حاجز بينها ولكن الدارس للعرف القبائلي يجد أنّه مبني على عنصرين:

– الاجتهاد العقلي: في الشؤون الزمنية وفق جغرافية وتاريخ المنطقة منذ فجر التاريخ والقيم الدينية، ومنذ وصول الإسلام إلى المنطقة هذّب الكثير من الأعراف بكيفية تجعلها تنسجم مع مقاصد الشريعة، لكن أهمها لم تخلوا عنه "العرف" في شؤونهم الزمنية.

والأكيد أنّ ذلك يتماشى مع قاعدة "أنتم أدرى بشؤون دينكم "ولا يفسر بأي حال من الأحوال بالعلمانية الغريب والبعيد عن تراثنا العرفي، بدليل أنّ سكان القبائل لا يزالون يعيشون ويتزوجون ويتوارثون ويبيعون ويشترون وتقاضون ويفرحون ويحزنون على سنة الله ورسوله.[1]

لذلك فقد كافح القسم القبائلي في مجلس الوفود بإلغاء التوصيات المالية ضد الاحتكام للعرف بدعوى أنّه غير قديم وغير صالح للتقدم المنشود، ونادى الوفد بإلغاء التوصيات التي أدرجها كتاب "هانوتو لوتورنو" وطالب الوفد بتطبيق الأحكام الشرعية المطبقة على سكان الجزائر كلهم، لكن الإدارة الفرنسية رفضت طلب الوفد وحافظت على العرف البربري القديم لأسباب سياسية[2].

[1]– محمد أرزقي فراد: إطلالة على منطقة القبائل، دار الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، 2009، ص ص 106–105.

[2]– أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص 324.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

ب– سياسة التبشير: تعتبر منطقة القبائل من المناطق التي وجهت لها سهام العمل التنصيري، بل تعد من أهمها، فقد انطلق فيها هذا العمل من الأسقف الأول للجزائر ديبش (1838–1845) مرورا بالأسقف "بافي (1846–1866)، ليصل إلى ذروته في عهد الكاردينال لافيجري (1867–1892)، ويعتبر الأب كروزا أول من قام بنشاط منظم في هذا المجال بمنطقة القبائل في عهد الأسقف "بافي" حيث أنشأ كنيسة صغيرة بحصن نابليون "عين الحمام" إذ اعتقد أنّ سكان القبائل سوف يكونون أقل تعصبا فعمل على استمالتهم بتقديم الملابس والمواد الغذائية وفتح مدرسة ضمت 20 طفل لكنه تعرض للاستهجان والسخرية وحتى السرقة الذي يعد عند القبائليين رمزا للعداء، إنّ تركيز التنصير في هذه المنطقة لم يكن عبثا فقد كانت هناك عوامل أدت إلى الاهتمام به في تلك المنطقة منها: – ترويج مقولة مفادها أنَّ القبائل والفرنسيون أصلهم واحد ويرجحون الأصول الرومانية بما أنّ أعينهم زرقاء وخضراء وشعر بعضهم أشقر.

– التأثير على القبائل وجعلهم يشعرون أنَّهم ليسوا عربا وخلق بلبلة بين العرقين وهي سياسة "فرق تسد" وبالتالي السيطرة عليهما الإثنين.

– اعتقد المبشرين أنَّ إسلام سكان منطقة القبائل سطحي وأنَّ القرآن لم يتمكن من التغلغل في أعماقها مستشهدين ببعض الأدلة التافهة مثل وجود قرية "أمصلوب" والتي أرادوا اثبات أنَّها سميت كذلك نسبة للمسيح عليه السلام فيقول الجنرال دوما: "كلما تعمقنا في الحفر كلما وجدنا تحت القشرة الإسلامية التي تعطي البربر رحيقا مسيحيا وعند ذلك ندرك بأنّ القبائلي الذي كان مسيحيا لم يتحول كليا إلى الدين الجديد".[1]

[1]– محمد الطاهر واعلي: التعليم التبشيري في الجزائر (1830–1850)، ط1، دار الهدى، الجزائر، 2012، ص 62.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

– محاولة إحياء المبشرين للهجات المحلية قصد القضاء على العربية أولا ثم الإسلام ثانيا.
– كثافة السكان في منطقة القبائل في مساحة صغيرة أوهم المبشرين أنّه يمكنهم تنصير أكبر عدد ممكن، كما فعل الجزاويت في الباراغواي وسط الهنود.
– الفقر المدقع في المنطقة خاصة مع نهاية ثورة المقراني سنة 1871، ومصادرة فرنسا للآلاف من الهكتارات.

بدأت سياسة التنصير في عهد "لافيجري"، فتم بناء الكثير من المدارس، هذا الأخير أشرف شخصيا على تأسيس سبع جمعيات تبشيرية دينية في المنطقة بتأييد من الحاكم "دوقيدون" الذي قال له: "قضيت عمري في حماية الإرساليات على كل بقاع الأرض وما دمت حاكما على الجزائر لن يقال هذه الإرساليات قد اضطهدت على أرض فرنسية...هناك من يعرقلكم أما أنّا فسأساندكم".

فمنذ سنة 1873 تأسس أول مركز للمبشرين عند قبائل أيث عيسى في "ثاقمونت" لتبلغ سنة 1901 عدد المراكز والمدارس 21 مدرسة تضم 1039 تلميذ ومع 1914 وصل عدد المبشرين في "أودهية" وحدها إلى 6 أباء بيض[1] و8 أخوات[2] كما أنّ الكنائس أخذت تنمو في منطقة القبائل كالفطريات فاقت 30 كنيسة.

نشط لافيجري هناك بداية من 1872 وحاول اقناع بأنّ أصلهم روماني لكنه لم يلق استجابة واسعة لكن لم تلقى هذه الدعوة صدى كبيرة، فاستعملوا وسائل أخرى كالتعليم بماله من أثر في اعداد جيل منصر يكون حامل لواء المسيحية في الجزائر، فيقول

[1]– فرقة من القساوسة أسسها لا فيجري في 20 ديسمبر 1868، باركها البابا بيوس التاسع، سميت بالآباء البيض نسبة إلى لباسهم المشابه للزي العربي، "جبة بيضاء طويلة مصنوعة من الصوف أو القطن فوقها برنوس أبيض أو أسود" للمزيد عن الموضوع أنظر: محمد الطاهر واعلي: المرجع نفسه، ص 63.
[2]– فرقة من القسيسات أسسها لافيجري في 1869/10/02 بغية تنصير المرأة.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

جون لوت: "يجب أن يحمل الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم الرشد وقبل أن تأخذ طباعهم أشكالها الإسلامية"، مع التركيز على عنصر البنات، لكن التعليم لم يلق تجاوبا من طرف الأهالي.

التطبيب من جهة استعمل كوسيلة لما له من أثر انساني على نفسية الانسان، فبنيت المستشفيات منها مستشفى "أث منقلات" سنة 1894 "سانت اليزابيث"،[1] بل تعدى الأمر إلى التنقل إلى المنازل قصد مداواة المرضى والعمل على استمالتهم بإخبارهم بأنَّ ما يقومون به من مداواة لهم منبعث من عقيدتهم المسيحية الداعية إلى الاحسان والعطف على الآخرين والتخفيف من آلامهم.

والأعمال الخيرية لعبت دورا كتقديم الملابس والطعام خاصة في أوقات المجاعات فمثلا سنة 1867–1868 حدث جفاف وانتشر الفقر والأمراض فكان لا فيجري يحمل الصليب في يد والخبز يد بمعنى الخبز مقابل التَّمسح ورغم كل الإمكانيات إلى أنّ سكان المنطقة ظلوا متمسكين بالدين الإسلامي و لم تلق هذه العملية إلاّ القليل القليل[2].

لقد لعبت السياسة الفرنسية دورا عن غير قصد منها في بلورة الحركة الإصلاحية.

ج–تشجيع الطرقية المنحرفة وتراجع مكانة الزوايا:

مثلت الزوايا والطرق الصوفية في المغرب العربي دورا هاما في نشر الثقافة الدينية والقومية والمساهمة في تماسك المجتمع، حيث كانت مركزا للتعليم والوعظ والإرشاد،

[1]– محمد الطاهر واعلي: المرجع السابق، ص

[2]– سعيدي مزيان: المرجع السابق، ص 316.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

كما كانت تعتبر مركزا للتدريبات العسكرية ومنطلقا لمختلف المقاومات التي قادها الجزائريون ضد الاستعمار والوقوف في وجه الغزو الصليبي منذ الفتح الإسلامي.[1]

وانتشرت الزوايا في الجزائر بصفة عامة وفي بلاد القبائل بشكل خاص حيث ساهم الأشراف والمرابطين في تأسيس الزوايا التي يمكن اعتبارها مؤسسات تربوية واجتماعية وإنسانية ذات أبعاد علمية ودينية وخيرية، وفي هذا الصدد يقول أبو يعلى الزواوي: "...أنّ الزاوية تعتبر مسجدا ومدرسة لله مجانا من حيث هي مسجد وأنّ المساجد لله ...ومن قواعد الانتساب لها أن يدفع الطالب قدرا صغيرا من الدراهم ثم هو لا يدفع شيئا بعد ذلك إلاّ تطوعا ولو مكث فيها مدة عمره وأما غير طلبة العلم من المسافرين والزائرين والمصلين فلا يدفعون شيئا..."[2]

ورغم كثرة الزوايا وازدهارها في بلاد القبائل فإنّه لا ينبغي فصل هذه المنطقة عن سائر العالم العربي والإسلامي التي عرفت نوعا من الجمود العلمي والتخلف الفكري وفي هذا الصدد يقول أبو القاسم سعد الله "...وظاهرة التقليد بالإضافة إلى تخلف الثقافة عموما كانت مسؤولة عن ندرة الإنتاج في العلوم الشرعية التي تحتاج إلى ثقافة واسعة كالتفسير، ذلك أنّ مفسر القرآن الكريم يحتاج إلى ثقافة دينية وتاريخية ولغوية قوية لكي يقدم على عمله ...وهذا ما لم يتوفر للجزائريين خلال العهد العثماني...[3]

[1]– رباح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط5، المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر، 2001، ص 124.

[2]– أبو يعلى الزواوي: تاريخ الزواوة، مراجعة وتعليق سهيل الخالدي، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2005، ص 117.

[3]– أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي(1500–1830)، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص ص11.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

وهذا التخلف الفكري والجمود المعرفي أفقد من قدرة الزوايا والطرقية من مواجهة الاستعمار الفرنسي، فعمل هذا الأخير على تحطيم سلطة الزوايا على المجتمع حيث عمل على تحطيم الزوايا والطرقية التي تهدف إلى نشر اللغة العربية وتحفيظ القرآن وتعويضها بالمدرسة الفرنسية ذات البعد السياسي أو بالطرق الصوفية المنحرفة وعمل الاستعمار الفرنسي من أجل تجسيد هذه الغاية على:[1]

1- هدم الزوايا ومصادرة أملاكها وضم مداخيلها الى أملاك الدولة الفرنسية.

2- إنشاء المدارس الفرنسية الابتدائية في المدن والأرياف.

3- محاربة كبار المرابطين واستدراجهم بالوظائف والزواج المختلط وتشجيع الدروشة والتدجيل بدل التعليم.

4- منع الزوايا من نشر التعليم العام وفرض برنامج ضيق عليها لا يتعدى تحفيظ القرآن الكريم دون تفسير أو تعليم قواعد اللغة وأصول الدين دون فهم.

وأكثر من ذلك اشترط مرسوم 18 أكتوبر 1892 أن يكون لكل زاوية سجل تسجل فيه أسماء التلاميذ وعائلاتهم ومحل إقامتهم وتاريخ ميلادهم ... بنفس ما تفعل المدارس الفرنسية، كما فرض على المدارس الزوايا المرخص لها بالتدريس ألا تفتح أبوابها للتلاميذ خلال أوقات الدراسة في المدارس الابتدائية الفرنسية.[2]

فآل التعليم بصفة عامة والزوايا بصفة خاصة في منطقة القبائل إلى وضع لا تحسد عليه بداية من استيلاء السلطات الاستعمارية على أملاك الوقف التي كانت تشكل المصدر الرئيسي لتمويل الزوايا، وهذا الواقع هو الذي ساهم في: تدني مستوى التعليم في

[1]– أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص ص172–173.

[2]– شارل روبير آجيرون : المرجع السابق، ص 569.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

المنطقة جراء السياسة السابقة الذكر وكذلك تضييق الخناق على رواد التعليم في المنطقة، مما جعل الكثير منهم يهاجر إلى المدن الكبرى أو إلى المشرق العربي لطلب العلم مثل الشيخ أرزقي الشرفاوي،[1] الذي سافر إلى مصر والتحق بجامع الأزهر، وكذلك الشيخ بن صديق الحافظي.[2]

وفي خضم هذه الظروف المظلمة سقطت الزوايا والمدارس في أيدي معلمين جهلاء وقد أعطى لنا باعزيز بن عمر تعريفا للعالم في هذه الفترة بقوله "...هو من يجمع مسائل في فروع الفقه وقواعد النحو وحفظ متون تضاف إلى تحفيظ القرآن...ثم هو لا يمنحه من عقله وروحه ما يجعل له حق التصرف فيه، فتراه يحدثك عن الفقه فيضع الشيء في غير موضعه ويفزع في الأحكام إلى "شموس الأنوار" و"تنبيه الغافلين" ...وهكذا يناقشك في النحو فيجعل مكان الرفع الخفض ومكان الخفض النصب ويتلعثم في تفسير القرآن فلا تشف عباراته إلاّ عن قوله "صواب خطأ وخطؤه كفر"[3].

وهنا نذكر بعض من مظاهر انحراف الطرقية في الجزائر من خلال عدة مظاهر وممارسات أبرزها:[4]

– انتشار الخرافة والشعوذة والسحر والتبرك بالأضرحة والتوسل إليهم مثل ضريح

[1]– ولد في سنة 1877 في قرية "شرفاء سيدي بهلول" دائرة عزازقة ولاية تيزي وزو.

[2]– عمار هلال: الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام 1847–1918، دار هومة، الجزائر، 2012، ص ص 180–182

[3]– باعزيز بن عمر: الإصلاح وآثره في بلاد القبائل، مجلة الشهاب، ج1، جانفي 1943، ص ص 586–587.

[4]– أحمد محمد الجزار: الامام عبد الحيد بن باديس والتصوف، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1999، ص ص98–100.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

سيدي موسى الوغليسي.

– الزهد في الدنيا والامتناع عن المباح مثل تجويع البدن والصيام المستمر الذي نهى عنه الإسلام.

– العزوف عن الزواج وعدم الأخذ بالأسباب في أمور الدنيا.

– الاهتمام بالذكر والمبالغة فيه مع ما يصاحب ذلك من العويل والصياح والرقص وترك التفكير والتدبر في آيات الله الكونية والقرآنية.[1]

رابعا: الإصلاح وعوامل ظهوره بمنطقة القبائل:

لفظ الإصلاح مشتق من الفعل صلح وصلوحا وهي ضد الفساد[2]، وأصلح الشيء بعد فساده أي أقامه وقيل الصلاح هو سلوك طريق الهدى[3]، اصطلاحا: جاء في تفسير ابن باديس قوله "الإصلاح هو ارجاع الشيء إلى حالة الاعتدال إزاء ما طرأ عليه من فساد والإفساد هو إخراج الشيء عن حالة اعتداله بإحداث اختلال فيه فأصلح البدن بمعالجته بالحمية والدواء وإصلاح النفس بمعالجتها بالتوبة الصادقة وافساد البدن بتناول ما يحدث به من ضرر وافساد النفس بمقاربة المعاصي والذنوب وهكذا تعتبر النفوس بالأبدان

[1]– مالك بن النبي: مذكرات شاهد قرن، القسم الأول، ط2، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1993، ص 181.

[2]– ابن منظور: لسان العرب، مادة صلح، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1900، ص ص 516–517.

[3]– منى حسن الدسوقي: الشيخ مصطفى الغلاييني في مفهومه الإصلاحي، دراسة مقارنة بين الشيخ الأفغاني ومحمد عبده، ط1، المكتبة العصرية، 1419ه–1999م، ص 69.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

في باب الصلاح والفساد في كثير من الأحوال غير أنَّ الاعتدال بالنفوس أهم وألزم لأن خطرها أكبر وأعظم"[1]

أما عن الإصلاح الاجتماعي والديني في الجزائر وبلاد الزواوة بشكل خاص فكان ضرورة حتمية ناتجة عن مجموعة من الظروف والمستجدات منها السلبية ومنها الإيجابية في العالم الإسلامي والجزائر، وعليه يمكن القول أن الإصلاح الديني والاجتماعي في الجزائر كان نتيجة حتمية لتأثر العلماء الجزائريين بالحركات الإصلاحية التي ظهرت في المشرق والتي كانت تمثل امتدادا واستمرارا للإصلاح الديني الذي ظهر بداية على يد حجة الإسلام ابن تيمية ومن حذا حذوه من العلماء المصلحين مثل الكواكب ومحمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهم، وقد عرفت الجزائر في تاريخها الحديث والمعاصر الكثير من المصلحين الذين حاولوا إعادة فعالية الدين الإسلامي في المجتمع الجزائري عن طريق محاربة أعدائه من رجال الطرقية والاستعمار الذين كانوا وراء تشويه صورة الإسلام بالخرافات والبدع الكثيرة التي نسبوها إليه، وكذا محاولة نشر مبادئ الإسلام الصحيحة ومن أشهر هؤلاء المصلحين: صالح بن مهنا – ابن سماية– عبد القادر المجاوي – مولود بن موهوب– حمدان الونيسي– عبد الحميد بن باديس – البشير الإبراهيمي[2].

ويعتبر عبد الحميد بن باديس من أبرز المصلحين الدينيين والاجتماعيين في الجزائر الذين كان لهم الفضل في تأسيس جمعية العلماء المسلمين، ومن خلال ما تم تقديمه يمكن

[1]– عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ط1، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1402ه/1982م، ص 107.

[2]– محمد الأمين بلغيث: "الإمام عبد الحميد بن باديس وأزمة التخلف الحضاري في الجزائر"، مجلة الموافقات، العدد السادس، السنة السادسة، 1418ه–1997م، ص ص 408–409.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

لنا وضع تعريف إجرائي للإصلاح الديني في الجزائر فنقول " أنه جملة الجهود الفكرية التي بذلها المصلحين الجزائريين لتغيير الأحوال الاجتماعية للجزائر بالرجوع إلى الأصول الدينية الإسلامية الصحيحة التي تساهم في تنوير العقل والقلب فتجعل الفرد واع بأوضاعه قادرا على تغييرها ليتمكن من تحقيق العطاء الحضاري والتكيف مع عصره".

أما فيما يخص عوامل ظهور أو انتقال الحركة الإصلاحية إلى منطقة القبائل فقد قسمناها إلى:

أ– أسباب عامة:

– ظهور بعض الشخصيات الإصلاحية في العالم الإسلامي أمثال جمال الدين الأفغاني، محمد عبده–رشيد رضا–فساهموا في انتقال الوعي وإحياء الأمة من خلال الكتب والمجلات مثل المنار لرشيد رضا والعروة الوثقى لمحمد عبده وجمال الدين الأفغاني.

– زيارة الشيخ محمد عبده سنة 1903 إلى الجزائر، فكانت محطة هامة ونوعية في مسار الفكر الإصلاحي في الجزائر، من خلال المحاضرات والتوجيهات[1].

التواصل الفكري مع المشرق العربي بالخصوص من طرف بعض العلماء، أين احتكوا بصفة مباشرة أو غير مباشرة بأعضاء الحركة الإصلاحية ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر الشيخ المولود الحافظي الذي التحق بالأزهر–محمد علي الشرفاوي وقبله الشيخ أرزقي الشرفاوي الازهري[2].

ب–أسباب تخص الجزائر وبلاد الزواوة: – جهود أبناء المنطقة: منهم من درس في المشرق ثم عاد إلى موطنه للتدريس ونذكر على سبيل المثال المولود الحافظي الذي

[1]– علي مرَّاد: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925 إلى 1940، تر محمد بحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 36.

[2]– عمار هلال: المرجع السابق، ص ص 180–182.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

عكف على التدريس وتعليم سكان قريته في بني حافظ عرش آث ورثيلان (بجاية) سطيف حاليا–وبعد مدة من التعليم انتقل إلى زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي في جبال جرجرة بمعية جمع من طلبته، وفي بداية القرن 20م ظهر مثقف قبائلي يدعى السعيد بن زكري صاحب كتاب أوضح الدلائل في وجوب إصلاح الزوايا بمنطقة القبائل المؤلف سنة 1903 ونادى خلاله بضرورة اصلاح المؤسسات المرابطية في ربوع خيم عليها الجهل ورؤوس عشش فيها الوهم والضلال مبرزا بذلك اول فكرة أساسية للإصلاح الديني والاجتماعي في المنطقة.

– نشاط عبد الحميد ابن باديس الإصلاحي، من خلال الدروس التي كان يقدمها في الجامع الأخضر، حيث كان لها الأثر الطيب في نفوس النَّاس، فحضر هذه الدروس العديد من المشايخ والطلبة من عرش بني عباس حتى بلغ عددهم 40 تلميذ وطالب من هؤلاء الشيخ صالح عيسات من بوجليل، الشيخ حسن حموش من تيزي وزو، الشيخ العربي عيسى المدعو بالشيخ القمقوم والهادي حجرس ومحمد الشريف أبركان من القبائل الصغرى[1]، إضافة لزيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس الى منطقة القبائل التي يمكن لنا أن نقارنها بزيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر[2].

ج–إصلاح التعليم والزوايا:

لقد تشبع بعض المصلحين بفكرة الإصلاح التي عرفتها المدارس الكبرى مثل الأزهر بمصر، من هؤلاء المصلحين نذكر الشرفاوي، المولود الحافظي، أبي يعلى الزواوي والذي يقول فيهم بعزيز بن عمر "من حسن حظنا أن سارت هذه الفكرة إلى الجزائر

[1]– عبد القادر مولاي : المرجع السابق، ص 180.

[2]– باعزيز بن عمر: المصدر السابق، ص ص 386–387.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

وصوبت سهامها إلى هذه الزاوية بصفتها معاهد علمية ومدارس نظامية قديمة طرأ عليها من الاختلال والتغيير في نظامها ما جعل التعليم فيها عقيما فكانت في اشد الحاجة إلى إدخال الإصلاح فيها"[1]. فانتقد هؤلاء المصلحين أساليبهم التعليمية وكشفوا الوسائل التي يستعملها مشايخ الزاوية في قهر أولئك الصبية البائسين وتسخيرهم لأعمالهم الخاصة من سقي وزرع وبناء ونددوا بما كانوا يتعرضون له من إهانة في المعاملة وقسوة بالغة بدعوى الترويض النفسي وفي هذا الصدد يقول باعزيز بن عمر "ولقد شاهدنا كثيرا من طلبتها قضوا أشطرا من أعمارهم في رحابها ولم يخرجوا منها حتى أنشد كل واحد منهم على نفسه متحسرا نادما على ما فات"[2].

د–إصلاحات بعض رجال الطرقية:

رغم أنّ سلوك الطرقية الرجعي الذي رفض الأخذ بأسباب العلم والعمل إلاّ أنّ هناك بعض رجال الطرقية الذين تنوروا وسعوا إلى التجديد والأخذ بالأسباب العلمية، ونذكر على الخصوص الشيخ عبد الحفيظ الهاشمي الذي قال عنه عبد الحميد بن باديس: "كان الشيخ الهاشمي شيخ الطريقة القادرية رجلا قويا ذكيا واسع الحيلة بعيد النظر فأدرك بثاقب رأيه أنّ ما عليه الطرقية من جهل لا يمكن له أن يستمر طويلا في عصر العلم والنهوض فولى وجهه شطر العلم وقدم أبناءه لجامع الزيتونة ...

لقد سعى الهاشمي إلى تغيير المناهج المتبعة في الكتاتيب القرآنية واستبدال منهاج الدراسة بها حتى تتماشى مع روح العصر وتستجيب لمتطلباته وقد دعا إلى ذلك نتيجة ما رآه من التعليم السيئ التي راح ضحيتها عدد وفير من أبناء القطر.[3]

[1]– المرجع نفسه، ص 180.

[2]– المرجع نفسه، ص 180.

[3]– يسلي مقران : المرجع السابق، ص 182.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

ه–الاهتمام بالمدارس: تأسست الكثير من المدارس خاصة لما تبنت الجمعية العمل الإصلاحي، حيث نشطت المنطقة بشكل يثير الإعجاب ومن المدارس والمناطق نذكر:

بجاية: باشر الحركة الإصلاحية هناك الهادي زروقي بعد عودته من تونس حاملا شهادة التطويع سنة 1925 وباشر التدريس بزاوية سيدي أحمد أوزروق بـــ"آث وغليس" واتصل بعبد الحميد بن باديس فأشار عليه بالإشراف على الحركة الإصلاحية في بجاية، فأسس هناك فرع للجمعية مباشرة بعد تأسيسها، مدرسة حرة لتدريس العلوم بالعربية بمساعدة "محمد ميهوبي" و"عبد الحميد بابا عيسى" سميت مدرسة الإصلاح وبفضل نجاحها فقد أرسلت بعثة نحو الجامع الأخضر بقسنطينة وبعثة أخرى إلى تونس[1].

من جهة أخرى نشط "عمر بوعناني" مسير المدرسة الخلدونية في بجاية كما نشطت منها جمعية التربية ببوقاعة، ولعل ما أكسب هذه المدارس الشهرة –خاصة التي أسسها "الهادي زروقي"– هو نوعية التدريس وطريقة التعليم ومن هذه المواد الرياضيات والتاريخ والجغرافيا، اللغة العربية والتربية الإسلامية.[2]

دلس: تأسست بها مدرسة حرة عام 1932 في مسجد سيدي عمار بفضل نشاط "محمد الطيب ناصر" ورفقائه من الإصلاحيين، وأشرف عليها فيما بعد المعلم "حمزة بوكوشة" الذي كلّفه الطيب العقبي بهذه المهمة وتم تدشين المدرسة بحضور الإمام عبد الحميد بن باديس والطيب العقبي والشيخ "علي ولخيار" من المنطقة، وفي عام 1944 أسندت إدارتها إلى الشيخ أحمد بن حميدة وظلّ على رأسها إلى أغلقتها فرنسا عام 1956

[1]– محمد أرزقي فراد : المرجع السابق، ص ص 16–17.

[2]– أحمد توفيق المدني : حياة كفاح، ج2، الجزائر، ص 285.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

وزجت به في السجن، وقد تمكنت هذه المدرسة من إرسال بعثة إلى قسنطينة عام 1948، وبعثة أخرى إلى جامع الزيتونة[1].

من المواد التي كانت تدرس فيها (العلوم الدينية) بمختلف فروعها والعلوم اللغوية بما فيها من نحو وصرف واجتماعيات، وما هذه المواد إلاّ صورة من صور التعليم العصري الذي يعبر عن الروح الإصلاحية والنهضوية لمثل هذه المدارس، وقد تعرضت هذه المدرسة للغلق بما كانت تنشره من وعي وشعور بالوطنية.

تيزي وزو: تأسست بها جمعية وقبلها تم تأسيس نادي السلام، كما تم انشاء مدرسة في "لالة سعيدة" في تيزي وزو وشارك في إدارة شؤونها والتدريس بها كل من "رابح بونار" والشيخ "علي الشرقي" الذي أصدر جريدة إصلاحية اسمها "الليالي"[2].

كما أنّ حمزة "بوكوشة" درّس بها بتكليف من الجمعية ولكن السلطات الفرنسية طردته من هناك بحجة أنّه عربي لا مكان له في قرية أمازيغية.

و– تأسيس الكشافة: أدرك المصلحون أهمية الكشافة في تنشئة الأفراد، خاصة الفئات الصغرى والشباب، عماد الأمة على نهج قويم، وهمة عالية، ومن المؤسسين للكشافة نجد رابح بوبريط، محمد صغير فرج، رمضان آيت عمر وغيرهم وكان لهذه الكشافة دور وبرنامج حافل تمثل في:

– عقد اجتماعات لنشر الفكر الإصلاحي.

– مساندة مظاهرات 08 ماي 1945.

[1]– محمد أرزقي فراد : المرجع السابق، ص ص 18–19.

[2]– سعيد شريفي : البعد السياسي لنشاط الحركة الإصلاحية البادیسية وأثره على منطقة القبائل (وشهد شاهد من أهلها)، مجلة المصادر، العدد 13، السداسي الأول، إصدار المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954، الجزائر، 2006، ص 145.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

– توزيع مناشير سياسية تندد بالاستعمار الفرنسي.

– تعليم أناشيد إسلامية ووطنية.

هذه الحركة الكشفية تعرضت للضغط ففي 15 ماي 1945 كادت هذه الحركة أن تباد عقب مشاركتها في مظاهرات 08 ماي حيث نبّه محافظ تيزي وزو السلطات الفرنسية إلى مدى خطورتها[1].

6. الخاتمـــة:

في خاتمة هذه الدراسة أردنا الوقوف على مجموعة من الأسباب التي ساهمت في نجاح الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل:

– المناخ الفكري والثقافي الذي كان موجودا في بعض الزوايا المتحررة مثل زاوية عبد الرحمن يلولي، فرغم التراجع العلمي فيها إلاّ أنّها حافظت على أصالتها، حيث كانت أنها معقلا للدين الإسلامي منذ عدة قرون.

– معظم رجال الحركة الإصلاحية من منطقة القبائل، فاستعملوا اللهجة المحلية لإيصال الفكر الإصلاحي ومن هؤلاء نذكر: صادق عيسات–ناصر الدين ناصر–الفضيل الورثيلاني– باعزيز بن عمر–أبو يعلى الزواوي.

– تبني الحركة الإصلاحية لقضايا الأمة الجزائرية ومقوماتها وتماشيها مع طبيعة السكان وآرائها مثل الحرية، الكرامة، الأخوة تمجيد العمل، النخوة على التجار، رفض العبودية، وغيرها.

– طلبة المنطقة الذين توافدوا بشكل مستمر على قسنطينة للدارسة ثم العودة إلى مقر سكنهم ومباشرتهم للتعليم فيها.

[1]– سعيد شريفي: المرجع نفسه، ص 141.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

– طلبة المنطقة الذين توافدوا بشكل مستمر على قسنطينة للدراسة ثم العودة إلى مقر سكنهم ومباشرتهم للتعليم فيها.

7. المراجع

1) ابن منظور: لسان العرب، مادة صلح، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1900.

2) أبو العباس أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق وتعليق عادل نويهض، ط2، دار الأفق الجديد، بيروت، لبنان، 1979.

3) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي(1500–1830)، ج1، ج2، ج3، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998.

4) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الحركة الوطنية، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص 1992.

5) أبو يعلى الزواوي: تاريخ الزواوة، مراجعة وتعليق سهيل الخالدي، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2005.

6) أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، الجزائر.

7) أحمد توفيق المدني: هذه الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر، الجزائر، 1984.

8) أحمد محمد الجزار: الإمام عبد الحيد بن باديس والتصوف، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1999.

9) باعزيز بن عمر: الإصلاح وآثره في بلاد القبائل، مجلة الشهاب، ج1، جانفي 1943.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

10) حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1982.

11) رباح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط5، المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر، 2001.

12) سعيدي مزيان: السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل ومواقف السكان منها (1871–1914)، أطروحة دكتوراه، إشراف حباسي شاوش، جامعة الجزائر، 2009.

13) شارل روبير آجيرون: المسلمون الجزائريون وفرنسا (1871–1919)، تعريب م. حاج مسعود و أ. آكلي، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007.

14) عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ط1، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1402ه/1982م

15) عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، دار الكتاب العلمية، بيروت، 2001.

16) عبد القادر مولاي: أقطاب الإصلاح في منطقة القبائل 1912–1956، أطروحة دكتوراه، إشراف عمار بن خروف، جامعة الجزائر، 2007.

17) علي مراد: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925 إلى 1940، تر محمد بحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007.

18) عمار هلال: الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام 1847–1918، دار هومة، الجزائر، 2012.

19) مالك بن النبي:

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

20) مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

21) محمد أرزقي فراد: إطلالة على منطقة القبائل، دار الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، 2009.

22) محمد الطاهر وعلي: التعليم التبشيري في الجزائر (1830–1850)، ط1، دار الهدى، الجزائر، 2012.

23) منى حسن الدسوقي: الشيخ مصطفى الغلاييني في مفهومه الإصلاحي، دراسة مقارنة بين الشيخ الأفغاني ومحمد عبده، ط1، المكتبة العصرية، 1419ه–1999م.

24) هانوتو ولتورنو: منطقة القبائل والأعراف القبائلية، ج2، تر مخلوف عبد الحميد، دار الأمل، الجزائر، 2013.

25) وليام شالر: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر (1816–1824)، تعريب وتقديم إسماعيل العربي، الجزائر، 1982.

26) يحيى بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.

المجـــلات:

سعيد شريفي: البعد السياسي لنشاط الحركة الإصلاحية الباديسية وأثره على منطقة القبائل (وشهد شاهد من أهلها)، مجلة المصادر، العدد 13، السداسي الأول، إصدار المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954، الجزائر، 2006.

محمد الأمين بلغيث: الإمام عبد الحميد بن باديس وأزمة التخلف الحضاري في الجزائر، مجلة الموافقات، تصدر عن المعهد الوطني العالي لأصول الدين، العدد السادس، الجزائر، 1418هـــ/1997م.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:33 العدد:01 السنة:2019 الصفحة:619–649 تاريخ النشر: 30–05–2019

المراجع باللغة الأجنبية:

Emile Carry : Récits de Kabylie campagne de Liminaire de Abderrahmane Rabahi, édition Alger, 2007.

Bulletin judiciare de l'Algérie, Doctrine jurisprudence législation 4e année 16 Février 1880, N°76.